

الثقافة الكردية بين الإحياء والإبادة خلال سنوات الأزمة السورية

إبراهيم حسين أحمد

تمهيد

التمسك بالهوية الثقافية هو ضرورة مجتمعية مصيرية، ومسؤولية يتحملها الأفراد والجماعات على حدٍّ سواء، وهي بمثابة الروح للجسد، وبدونها يغدو الجسد جيفة يجب التخلص منها، فكلما حافظت على هذه الهوية، كان لك وجوداً يفرض نفسه على الأمم الأخرى.

خلال هذه الدراسة سنقوم باستعراض لحالة الثقافة الكردية في سوريا؛ خلال سنوات الأزمة؛ وهل هي في صعودٍ نتيجة الاستقرار الذي تعيشه المنطقة في شمال شرق سوريا، أم في هبوط وإبادة نتيجة الاستهداف، سواء من الداخل أم الخارج السوري؟ وخلال الدراسة سنوضح مفهوم الثقافة بشكل عام والثقافة الكردية بشكل خاص، ونتناول اللغة لأن اللغة هي الثقافة لو تناولنا التعريف بشكل ضيق.

كما أن مشكلة الدراسة لم تتناولها الدراسات السابقة، للاستفادة منها ضمن هذا الدراسة، لذا ستكون الدراسة الأولى في شمال شرق سوريا؛ تقوم بتسليط الضوء على هذا الجانب، رغم أن هناك مقالات ووسائل إعلامية كثيرة تناولت – جزئياً – ما حدث خلال الفترة المذكورة.

الدراسة تحتوي صور توضيحية للمعالم الأثرية، والمزارات، والرموز الكردية التي تعرضت للدمار خلال سنوات الأزمة.

منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي؛ الذي يعمل على فحص ماهية ومكان وزمان ظاهرة ما، ودراسة الظاهرة كما هي في الواقع، ووصفها وصفاً دقيقاً، وجمع المعلومات عنها، كما يعتمد على أخذ الملاحظات الدقيقة والتوثيق التفصيلي للظاهرة موضوع الدراسة. وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين ظواهر أخرى؛ وصولاً إلى إمكانية التحكم بها.

أهمية الدراسة

تكمّن أهمية هذه الدراسة في التعريف بالثقافة الكردية، والتي يحصرها شريحة كبيرة من الشعب الكردي ضمن أغنية أو مسرحية أو عزف على آلة موسيقية، في حين أن الثقافة تتعدّى كل ذلك لتكون بمثابة المأكّل والمشرب الذي يعيش عليه الإنسان.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى التعريف بحالة الثقافة الكردية في المرحلة التي سبقت الأزمة السورية، كما تلقى الضوء على مسار الثقافة الكردية خلال أعوام الأزمة السورية، وتهدف أيضاً إلى التعريف بالعوامل والأسباب التي نتجت عنها إحياء الثقافة الكردية من جانب؛ وعوامل وأسباب أخرى حالت بالثقافة الكردية في بعض الأماكن من سوريا إلى حافة الإبادة.

التعريفات الإجرائية للدراسة

1. **الأزمة السورية:** الحرب الأهلية السورية أو الثورة السورية هي صراع مسلح مستمر متعدد الجوانب في سوريا يخاض بالدرجة الأولى بين حكومة حزب البعث بقيادة رئيسها بشار الأسد وحلفاءه ومختلف القوى المعارضة للحكومة السورية.
2. **الكومين:** هي وحدة اجتماعية اقتصادية سياسية خدمية ذو نظام ديمقراطي كومنالي، تؤسس على مبدأ الديمقراطية المباشرة وحرية المرأة والانسجام بين عناصر المجتمع، وتنظم نفسها أفقياً وهرمياً بعيداً عن السلطة والدولة.
3. **شمال شرق سوريا:** هي منطقة تتمتع بالحكم الذاتي بحكم الواقع في شمال سوريا، تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية.
4. **ديموغرافيا:** علم السكان أو الدراسات السكانية هو فرع من علم الاجتماع والجغرافيا البشرية، يقوم على دراسة علمية لخصائص السكان المتمثلة في الحجم والتوزيع والكثافة والتركيب والاعراق؛ ومكونات النمو (الانجاب والوفيات والهجرة) ونسب الأمراض، والحالات الاقتصادية والاجتماعية، ونسب الأعمار والجنس، ومستوى الدخل، وغير ذلك في إحدى المناطق.
5. **الحزام العربي:** هو مشروع حكومة البعث السورية؛ لإضفاء الطابع العربي على شمال محافظة الحسكة، بهدف تغيير التكوين العرقي للسكان في المناطق الكردية لصالح العرب.

أزمة .. أم حرب أهلية .. أم؟

يرغب البعض في تسمية ما يحدث في سوريا بالأزمة السورية، ولكن هل يمكن أن نطلق عليها اسم الأزمة؟ أم هي ثورة، حرب أهلية أو كونية، أم حرباً عالمية ثالثة.. مصطلح الأزمة –هنا-

يحمل الكثير من التضليل والبعد عن الدقة؛ قد يكون سمّاها البعض أزمة لكي يخفف من وطأة الحدث، ولكي يغطي بذلك على هول الحرب الدائرة في الداخل السوري.

في بداية الأحداث؛ وهو اسم – أي الأحداث - آخر للأزمة، تجرّأ وزير الخارجية السوري وليد المعلم وقتها حين سأله أحد الصحفيين عن الأحداث ذاكراً كلمة أزمة؛ فأجاب محرراً الصحفي: أي أزمة؟ مع ابتسامة ساخرة. هو لم يكن يرى الأزمة من أساسها.

ثم انتقلت بعد ذلك الأزمة إلى مراحل أخرى؛ لن نسهب في ذلك؛ فهو من مهمة الساسة والمحللين السياسيين. أسماء كثيرة أطلقت على المأساة السورية، ولكن النتيجة كانت واحدة دائماً؛ وهي شتات السوريين.

وسواءً أكانت هذه الفترة هي أزمة أو غيرها، فقد مرّت الدولة السورية خلالها بتحويلات نوعية؛ سواءً أكانت سلبية أو إيجابية؛ كارثية أو بناءة، كل ذلك حدث، وعلى كافة المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وكان الكرد جزءاً من هذه الحقيقة السورية، لكن انتهاج الخط الثالث¹؛ الذي رفضه الكثيرون؛ بما فيهم شريحة كبيرة من المثقفين والسياسيين الكرد؛ أكد بعد كل هذه السنوات من الحرب؛ أنه الأصح حسب الوقائع والشهادات، وهو نتيجة فكر وفلسفة حافظت على شمال شرقي سوريا من الدمار الذي حلّ بباقي المناطق، هو نتيجة فلسفة خلقت ثقافة الأمة الديمقراطية²!

تعريف ومفهوم الثقافة

تعريف الثقافة لغةً

في اللغة العربية أصل كلمة الثقافة يأتي من الفعل الثلاثي (ثقّف) ويقرأ بضم القاف (ثقّف) وكسرهما (ثقّف). وتأتي بمعنى: العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها.

¹ الخط الثالث: هو الطريق الذي سلكته الإدارة الذاتية في شمال سوريا؛ بحيث عملت على حماية المنطقة من هجمات كل من النظام والمجموعات المعارضة المسلحة المتطرفة، واختارت عدم التحيز لأي طرف من أطراف الأزمة السورية المتصارعة على السلطة.

² نظرية الأمة الديمقراطية: هي الوحدة في التنوع والتعايش الطوعي، فنظرية الأمة الديمقراطية تنظر إلى المجتمع على أنه عبارة عن كون، وهذا الكون يتألف من تشكيلات مختلفة، وجميع هذه التشكيلات تكمل بعضها البعض، فبشكل مختصر إذا كان الكون عبارة عن حديقة فلا يمكن لها أن تكتمل إلا بأزهارها ونباتاتها وأشجارها المختلفة.

تعريف الثقافة اصطلاحاً

أقدم تعريفات الثقافة وأكثرها شمولاً هي التي تعود للعالم البريطاني إدوارد تايلور³ حيث عرّف الثقافة بأنها ذلك المفهوم الكلي الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون، والعادات والقدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع.

أحدث التعريفات المتفق عليها لمفهوم الثقافة هو ما تم الاتفاق عليه عام 1982م في مؤتمر ميكسيكو الذي نصّ على أنّ الثقافة هي كل السمات المادية والروحية والعاطفية والتي تتيح لمجتمع ما أو لفئة فيه أن تتميز بتلك السمات عن غيرها من الفئات في ذات المجتمع أو عن غيره من المجتمعات.

وقد عرّف عبد الله أوجلان⁴ الثقافة على أنها "مجموعة كينونات المعاني والبنى، التي كونها المجتمع البشري على مدار التاريخ، وبينما تعرّف كينونات البنى على أنها مجموع المؤسسات المفتوحة للتحويل والتطور، فمن الممكن تعريف كينونات المعاني على أنها مستوى أو مضمون المعاني المتنوعة والغنية والمتراصة ببعضها البعض تبادلياً وبالتكافؤ ضمن تلك المؤسسات المتحولة".

أوجلان قسّم الثقافة إلى بعدين؛ المعاني: وهو البعد المعنوي للثقافة، ويشتمل على كل ما هو قيمى أو فكري. كالشعر والقصة والرواية والمسرح والأمثال، والمعتقدات الدينية. والبنى: الأشياء المادية التي يصنعها المجتمع كالمباني والأدوات والألبسة ووسائل الاتصال والمواصلات. بالإضافة إلى الجوانب الفنية كالنحت والرسم. كما تعتبر الآثار التاريخية من الثقافة المادية للمجتمع.

وهناك من يقول أن الثقافة هي كل متكامل ولا يمكن الفصل بين البعد المادي والمعنوي، لأن البعد المادي هو نتيجة للبعد المعنوي، فالتمثال المنحوت هو نتيجة فكرة خطرت في ذهن الانسان، والأبنية أيضاً هي نتيجة دراسة فكرية علمية.

وطالما أن الثقافة هي كل شيء يفكر به الانسان ويصنعه، فمن الطبيعي أن يكون وجود الانسان مرتبطاً بها، ومن الطبيعي أيضاً أن تكون الأمة التي لا ثقافة لها هي أمة ميتة، وإما أن تضيق وتنصهر في أمة أخرى، أو تكون عالة يجب التخلص منها وإبادتها.

³ إدوارد برنت تايلور (1832-1917): عالم إنسان (أنثروبولوجي) بريطاني أصبح أستاذاً لعلم الإنسان في جامعة أكسفورد منذ عام 1896 وظلّ بها حتى تقاعده في عام 1913. أسهم إسهاماً كبيراً في دراسة الثقافة وكان أحد رواد الاتجاه التطوري، وقال بالنظرية البيولوجية، وأسهم في تطوير الدراسات المقارنة للأديان.

⁴ مفكر كردي، له كتب كثيرة نضالية، ثورية، فلسفية، ومانيفستو الحضارة الديمقراطية عبارة عن خمسة مجلدات كتبها داخل سجن إمري بتركيا الذي لا زال مسجوناً فيه منذ 19 عاماً.

وفي السياق كتب رستم جودي⁵ "إن ضياع كل ثقافة يعني خُسراناً أكبر من الخسران الذي خلفته القنبلة النووية في هيروشيما وناكازاكي؛ بل هو أخطر، لأن تلك القنابل دمرت مدينتين، لكنها لم تدمّر ثقافة الشعب".

اللغة

الانسان حيوان ناطق؛ عبارة أطلقها أرسطو؛ وحتى لو كانت هذه الجملة لا تعطي التعريف الدقيق للإنسان، لكنها دقيقة جداً لو تناولنا النطق فقط، واللغة التي ميزت الانسان عن الحيوان، باتت وسيلة التمايز بين الأمم والشعوب أيضاً.

وفي السياق سنقوم بتناول تعريف أوجلان للغة؛ خاصة أن الحديث هنا عن الثقافة الكردية. يرى أوجلان أن "مصطلح اللغة يرتبط بمصطلح الثقافة بأواصر متينة، مشكلاً العنصر الرئيسي في حقل الثقافة بمعناه الضيق"، فلو لا اللغة لما كانت هناك ثقافة، بغض النظر عن انسان نياندرتال والذي عرف عنه بعض الثقافات البدائية، كالصيد الجماعي، ودفن الموتى، وحتى هذا الانسان يقول الباحثون أنه كان يتكلم؛ لكن لم تكن لديه تلك التركيبات اللغوية العميقة.

اللغة بذاتها – كما يقول أوجلان – "تعني الإرث المجتمعي للذهنية والأخلاق والجماليات والعواطف والأفكار التي اكتسبها مجتمع ما. وهي وجود الهوية واللحظة الذي يُدرَك ويُعبّر عنه بالنسبة للمعنى والعاطفة. والمجتمع الذي يُعبّر عن ذاته يدلّ على امتلاكه الحجة القوية للحياة. ذلك أن مستوى رقيّ اللغة هو مستوى تقدم الحياة. أي أنه بقدر ما يرقى مجتمع ما بلغته الأم، يكون قد ارتفع بمستوى الحياة بالمثل. وبقدر ما يخسر مجتمع ما لغته ويدخل تحت حاكمية لغات أخرى، يكون مستعمراً ومعرّضاً للصهر والإبادة بالمثل". والأمثلة على ما تم ذكره كثيرة، وقد لا نكون مخطئين إن قلنا إن قوة اللغة هي وجه آخر / أو نتيجة طبيعية لقوة الدولة، فاللغة الانكليزية هي اللغة العالمية اليوم، لأن الدولة والشعب الذي يتحدّث بها تطوّر على كافة المستويات؛ منها العسكرية والاقتصادية التي باتت تحكم العالم كله تقريباً.

يكمل أوجلان في تعريف اللغة فيقول – تنمة لما سبق - : "من الواضح أن المجتمعات التي تحيا هذا الواقع لن تتمتع بحياة مفعمة بالمعاني ذهنياً وخلقياً وجمالياً. بل سيحكم عليها بحياة مأساوية إلى أن تقنى بوصفها مجتمعات مريضة. هذا ولا مهرب من توظيف القيم المؤسساتية للمجتمعات التي تعاني من فقدان المعنى والجماليات والأخلاق كمادة خام لقيم المستعمرين". مؤكداً أن الأمة الضعيفة ستكون هدفاً للمستعمرين، وهذا ما تم ملاحظته خلال التجارب التاريخية للأمم،

بالنسبة للكرد يقول أوجلان في تعريفه للغة: "خلاصة القول؛ إذا تم عيش لغة ما كما هي الحال لدى الكرد مثلاً، فجليّ أن مجتمعاً يمرّ بحالة كهذه سوف يغدو مقهوراً وبائساً حتى النخاع على الصعيد المادي، وسيهوي نحو التشتت والتناثر؛ ولن يتقادى العيش مشحوناً بالأخطاء والخianات

⁵ رستم جودي – مناضل كردي – فقد حياته عام 2011 على أثر غارة جوية للطائرات التركية.

والشعاعات معنًى وأخلاقياً وجمالياً". وهذا ما يحدث اليوم بالفعل، وحدث سابقاً أيضاً، فأغلب الثورات الكردية فشلت نتيجة الخيانات، وضياح أجيالنا الآن بين اللغة العربية والكردية هي أحد أهم أسباب التشتت. بالإضافة إلى حالة الأنانية الحزبية والشخصية التي باتت دارجة اليوم، والدول المستعمرة لكردستان تعزف على هذا الوتر حتى اليوم.

الثقافة الكردية

عندما نقول أن شعباً ما له ثقافة معينة تختلف عن ثقافات بقية الشعوب فهذا يعني أن له هوية خاصة به، يُعرف بها أمام بقية الشعوب.

إذا تحدثنا عن الشعب الكردي فله هويته الثقافية منذ آلاف السنين، وباعتبار أن الأرض الكردية قد تم تقسمها بين أربعة دول، وكل تلك الدول ضد إنشاء أي كيان كردي، فمن الطبيعي أن تستهدف هذا الشعب بكل السبل، وبما أننا قلنا أن الثقافة هي روح أي شعب، لذا يتم عادة استهداف الروح، لكي تتحول هذه الأمة إلى أمة ميتة!. وبالتالي تنصهر تماماً مع الأمة العربية أو الفارسية أو التركية.

واللغة هي من أهم ركائز هذه الهوية، لأنها تجمع كل شعب تحت مظلتها، ومن أهم مميزات الشعب الكردي أنه حافظ على لغته، لأن بعض اللغات الأخرى انقرضت وباتت من اللغات القديمة التي عاشت فترة معينة من الزمن ثم ماتت ولم تتطور.

إحياء الثقافة الكردية في شمال شرق سوريا.. كردياً

خلال سنوات الأزمة مرّت الثقافة الكردية في روج آفا بانتعاش كبير؛ حيث ما كان ممنوعاً قبل عام 2011 بات متاحاً وبسهولة بعد 2011، وتحديدًا بعد ثورة روج آفا عام 2012؛ جنباً إلى جنب مع الثقافات الأخرى، والتي كادت أن تُباد أو أُبِيدت أو طُمست، طبعاً مسألة إحياء تلك الثقافات كانت نتيجة طبيعية لتطبيق مفهوم الأمة الديمقراطية لأوجلان؛ والذي يساوي بين الجميع، فالمناهج الكردية أُدخلت في كافة المراحل الدراسية، وهناك من يقول أنه توازياً مع ثورة روج آفا في 2012 كانت هناك ثورة رديفة وهي ثورة اللغة الكردية التي كسّرت كل الحواجز، فبعد أن كانت تُدرّس في منازل سرية باتت تدرس في المدارس والمعاهد والجامعات على كامل أرض روج آفا.

كانت البنية التربوية لمناهج النظام البعثي مبنية على فكرة الحزب الواحد الشمولي؛ والمنافي للتربية الديمقراطية، وتطمس تاريخ وثقافة جميع المكونات السورية الأخرى كالكرد والسريان والأرمن والتركمان والشركس.. وكانت مناهج النظام تبرز الروح القومية العربية فقط، وتعتمد فكرة الحزب الواحد واللغة الواحدة واللون الواحد والقائد الواحد، وبذلك تعزز تلك المناهج الروح العنصرية والشفوفينية، انطلاقاً من ساسة أن كل من يعيش على الأرض السورية هو عربي.

لكن تكريساً لمبدأ العدالة والمساواة وحقوق التعلم، ففي ظل الإدارة الذاتية يدرس كل مكون ويتعلم بلغته ليتعرف من خلال ذلك على ثقافته وتراثه، خلافاً لما كان في السابق، حيث كان يفرض

على كافة المكونات التعلم باللغة العربية فقط. ووفقاً للعقد الاجتماعي للإدارة الذاتية الديمقراطية فإن مناهج الإدارة تستند الى قوانين حقوق الإنسان الدولية، وتحترم القيم العليا للإنسان، وتحارب بشدة أشكال العنصرية والتمييز بين المدنيين على أساس الدين أو الجنس أو العرق.

تدرس اللغة الكردية في كافة المراحل الدراسية، وقد تم إنشاء الجامعات التي تشكل اللغة الكردية فيها فرعاً خاصاً مستقلاً، وبذلك يكون إحياء اللغة قد تم على أعلى المستويات الأكاديمية.

بالإضافة إلى ما سبق كان هناك صعوداً في النشاطات التي تهتم بالتراث الكردي، حيث في كل كومين وبلدة وناحية ومقاطعة لجنة خاصة تهتم بالشأن الثقافي، بالتنسيق مع حركة الثقافة في المنطقة، وكانت نقطة البداية من الكومين؛ الذي كان ثقافة جديدة على شعوب شمال شرق سوريا؛ وساهم بدوره في إحياء الثقافة بشكل ملحوظ.

الكومين كتقافة جديدة.. وأداة لإحياء الثقافة.

من إحدى الثقافات التي يعتز بها شمال شرق سوريا، هي الكومين أو الكومون؛ التي أفسحت المجال أمام الجميع للمشاركة بصنع القرارات، ورغم أن الكومينات ناشئة في الشمال السوري، لكن فكرتها قديمة، وفي أوروبا طبق هذا المفهوم في الكثير من الدول في العصور الوسطى وكانت شكل من أشكال الإدارة الذاتية.

والكومين هي أصغر وحدة اجتماعية في المجتمع، ويمكن اعتبارها مجلس مصغر للحي أو القرية. عدد أفراد الكومين سواءً أكان قرية أو حارة ما بين (7 – 300) شخص، وإن تجاوز عدد الأشخاص هذا الرقم يمكن التقسيم إلى كومينتين، وكل شخص له حق المشاركة في قرار الكومين، بحيث لا يتجاوز عمره 16 سنة.

تؤسس داخل كل كومين لجان تعتبر بمثابة الوزارات التي تدير أمور الحي أو القرية، فهناك لجنة خدمية ولجنة عدالة اجتماعية ولجان للثقافة والمرأة والحماية والتدريب والصحة .. إلخ.

أفسح الكومين المجال أمام الجميع بالتعبير عن آرائهم، وهذا ما لاحظناه على أرض الواقع، كما لاحظنا تطوراً في الوعي الجمعي لدى الكومينات، فمن كان يعيش على هامش الحياة، بات مشاركاً في بناء الحياة، بالإضافة إلى تطور حالة الشعور بالمسؤولية لدى الفرد تجاه الجميع.

مفهوم الكومين كان سبباً في تأسيس لجان الثقافة التي عملت على إحياء الثقافة؛ واكتشاف المواهب الفنية وتطويرها؛ وتطوير الوعي الثقافي لدى الشعب، لأن شريحة كبيرة من الشعب الكردي في سوريا كانت تحصر الثقافة في آلة موسيقية أو أغنية أو قصة أو رواية.

ويمكن اختصار ماهية الكومين في أنها وحدة اجتماعية اقتصادية سياسية خدمية ذو نظام ديمقراطي كومونالي، تؤسس على مبدأ الديمقراطية المباشرة وحرية المرأة والانسجام بين الشعب، وتنظم نفسها أفقياً وهرمياً بعيداً عن السلطة والدولة.

استهداف الثقافة الكردية .. إقليمياً

الكاتب التركي الأصل اسماعيل بيشكجي؛ في كتابه كردستان مستعمرة دولية والمنشور عام 1991، يذكر بدايات تعرفه على الشعب الكردي، وكيف كان يحمل صورة خاطئة عنهم بفعل الايديولوجية الرسمية حينها، من (نعت الكرد بأترك الجبال وأن اللغة الكردية هي إحدى اللهجات التركية). يقول بيشكجي "حين وصلت إلى جنوبي شرقي تركيا؛ لأداء خدمتي العسكرية 1962، رأيت شعباً له لغة وتاريخاً وتقاليدها تختلف عما لدينا نحن الأتراك، وهذا الشعب لا يحمل الاسم الذي يطلقه عليه الأتراك، فهو لا يسمى نفسه أترك الجبال وإنما يسمى نفسه نحن الكرد".

لم تتوضح معنى جملة كردستان مستعمرة دولية للجميع بمعناها الدقيق إلا في أيامنا هذه، وخاصة خلال سنوات الأزمة السورية، فبالإضافة إلى أنها مقسمة بين أربعة دول إقليمية، هي أيضاً محتلة من قبل الدول العظمى، خاصة أن تلك الدول لها أجنداتها ومصالحها مع/ و على أرض هذه الدول الإقليمية.

يرى بيشكجي أن "الأكراد أمة بلا دولة، والهدف الرئيسي للاستعمار الدولي أن يحول دون تأسيس دولة كردية، الأمر الذي يسهل الاستغلال المستدام للموارد الطبيعية ولآبار النفط والمياه والمعادن الأخرى من ثروات كردستان".

لذا؛ فإن مجرد التفكير في إنشاء أي كيان كردي، يعني أن يكون برضى كامل سكان الكرة الأرضية إذا صح التعبير. وهذا ما يبدو مستحيلاً حسب المدى المنظور، إلا إذا تغيرت الموازين، أو أثبت الكرد وجودهم بوحدة الصف أو القوة الواحدة أو أي فكرة مبدعة تقلب الموازين الدولية من قبل الساسة الكرد.

وطالما أنها مستعمرة، ومقسمة بين أربعة دول، فمن الطبيعي أن تخاف كل دولة على حدودها المرسومة باتفاقية مضت عليها أكثر من مئة عام (سايكس - بيكو).

وطالما أن حديثنا عن الثقافة، فهذه الدول تحاول دائماً استهداف الثقافة الكردية لإفراغها من مضمونها، وطمس هوية شعبها، ليغدو شعباً ميتاً ذليلاً تابعاً لغيره.

الأتراك تاريخياً- تعتبرون حديثي الظهور في المنطقة، ولا يملكون ذلك الإرث الحضاري العريق، لذا تحاول الدولة التركية دائماً القضاء على إرث الحضارات الأصيلة في المنطقة، والكرد منهم، وهذا ما سعت إليه سواء في تركيا أو حالياً في سوريا.

عندما بدأت حملة ما تسمى بغصن الزيتون التركية في عفرين؛ بتاريخ 20 / 1 / 2018 م، كان الهدف التركي واضحاً، وهو حماية حدودها من الإرهابيين، ومع أن الطفل بات يعرف أن تركيا هي الممولة الرئيسية للإرهاب في سوريا، لكن المجتمع الدولي بقي صامتاً، لماذا؟ لأن كردستان مستعمرة دولية!

خلال 58 يوماً، وبحسب التقارير الدولية عاشت تركيا - مع الفصائل الإسلامية الراديكالية - فساداً في أرض عفرين الكردستانية، وحرقت ما استطاعت سواء بالمدفعية الثقيلة أو بالطيران الحربي، وقتلت الأطفال وسبّت النساء، ومثّلت بأجساد المقاتلين الكرد نساءً ورجالاً؛ والمجتمع الدولي صامتٌ.. لأن كردستان مستعمرة دولية.

وثّقت منسّنة الحوقيون السوريون للدفاع عن عفرين أكثر من 920 حالة من انتهاكات القوات التركية والمجموعات السورية المدعومين منها، حيث وصفت المنظمة أن تلك الانتهاكات تصل لمستوى جرائم حرب، وذكرت أن تلك القوات ارتكبت 12 مجزرة، وقتل ما يقارب 750 مدني؛ بينهم أطفال ونساء، وتدمير الآلاف من منازل المدنيين والمرافق العامة، بالإضافة إلى نزوح وتشرد الآلاف من سكان المدينة ومن أريافها، سواء قبل الاحتلال أو بعده.

منطقة الإدارة الذاتية عاشت الأمان خلال كامل سنوات الأزمة السورية، وهي المنطقة الوحيدة في سوريا التي بقيت محافظة على حالة الاستقرار والبنية التحتية، بفضل نظرية الأمة الديمقراطية كما تؤكد الوقائع، ولا زالت حتى هذه اللحظة تتعرض للتهديدات سواء من قبل الدولة التركية أو من قبل الحكومة السورية، أيضاً لأن كردستان مستعمرة دولية.

وفي عفرين عندما أدرك المقاتلون الكرد أن استمرار الدفاع عنها سيجعل من المدينة بقايا أطلال؛ انسحبوا منها، وبذلك دخلت تركيا مع الفصائل المسلحة، وأول ما قاموا باستهدافه هو الرمز الأهم من رموز الثقافة الكردية، فحطموا تمثال كاوا الحداد⁶ الذي يمثل رمزاً تاريخياً بالنسبة للكرد، والصور التالية توضح عناصر من الجيش الحر تقوم بتحطيم تمثال كاوا الحداد في مدينة عفرين:

⁶ كاوا الحداد (نسبة إلى مهنته) هو بطل كردي، تقول الأسطورة إنه نجح في التحايل على ملك ظالم، وتمكن عبر حنكته من إنقاذ شبان المدينة الذين كان يأمر الملك بقتل اثنين منهم يومياً. وبدأ بجمعهم في الجبال المحيطة بالمدينة وتزويدهم بسيوف كان الحدادون يصنعونها في تلك الفترة، قبل أن يهاجموا قصر الملك ويحرقونه، ومنح كاوا إشارة الانطلاق للهجوم عبر إشعال النيران التي تعد رمزاً مقدساً لدى الأكراد وما زالت عادة يتبعونها خلال احتفالاتهم.



تمثال كاوا الحداد أثناء تدميره



تمثال كاوا الحداد بعد تدميره

خلال تلك الفترة؛ قام الطيران التركي بقصف صورة أوجلان المرسومة على السفح الجنوبي لجبل "دراميك"؛ المطل على بلدة راجو؛ التابعة لعفرين، وقاموا بتصوير ذلك ونشره على مواقع التواصل الاجتماعي، ويكونوا بذلك قد استهدفوا رمزاً كردياً، يعتبر قائداً عظيماً في نظر شريحة كبيرة من الشعب الكردي، والصورة التالية توضح لحظة القصف:



صورة أوجلان قبل وبعد القصف

وبعد أن تم احتلال عفرين بأيام، تم وضع صورة للرئيس التركي رجب طيب أردوغان مكان صورة أوجلان بتقديم من فرقة السلطان مراد، كما هو موضح في الصورة التالية:



استبدال صورة أوجلان بصورة لأردوغان زعيم حزب الحرية والعدالة

ولأن كل رمز كردي يعتبر تراثاً كردياً، فقد قامت الفصائل الإسلامية المعروفة بالجيش الحر بتدمير المقبرة التي تضم رفات الدكتور نوري ديرسمي⁷ وزوجته؛ والذي هو أحد قادة ورموز الثورة الكردية في مدينة ديرسم؛ في تركيا سنة 1937 م، كانت تضم المقبرة بالإضافة إلى ذلك؛ رفات العديد من الشخصيات الوطنية والدينية في ناحية شرا التابعة لمنطقة عفرين، ضمن المزار الذي يسمّى مزار حنّان.

الصورة التالية توضح ضريح الدكتور نوري ديرسمي قبل استهدافه والعبث بمحتوياته:

⁷ ولد الدكتور نوري ديرسمي في آذار 1894 في قرية آخزونيك التابعة لولاية ديرسم، أبوه إبراهيم، وأمه زليخة، ينتمي إلى عشيرة ملان، بدأ بممارسة السياسة وهو شاب، حيث قام بتأسيس اتحاد طلبة كردستان مع بعض زملائه واستمر حتى المرحلة الثانوية. توفي الدكتور نوري ديرسمي في عام 1973، فيما وافت المنية زوجته "فريدة" عام 1994 ودفنا في فناء مبنى المزار.



ضريح الدكتور نوري ديرسي قبل الاستهداف

والصورة التالية توضح الضريح بعد العبث بمحتوياته:



ضريح الدكتور نوري ديرسي وزوجته بعد الاستهداف

من ضمن سلسلة التدمير الثقافي في عفرين قام الطيران التركي باستهداف الآثار الكردية في عفرين، من بينها معبد عين دارة⁸ الأثري، وقد تضرر الموقع بنسبة تتجاوز الـ 50 بالمئة، كما هو موضح في الصورة التالية:



صورة لمعبد عين دارة بعد الاستهداف والتدمير

كما تم استهداف الكثير من المواقع الأثرية الأخرى منها النبي هوري (سيروس)⁹، وبعض الآثار الرومانية القديمة كالمعبد الروماني في قرية كالوتا.

أما بالنسبة للتغيير الديمغرافي الحاصل في مقاطعة عفرين؛ فهو مستمر منذ الأيام الأولى للاحتلال التركي، بهدف إفراغ المنطقة من أهاليها، وإسكان العرب والتركمان في منازلهم، وآخر تلك المشاريع هي المشروع الاستيطاني المسمى بالقرية الشامية والذي يتم بناءه شرق عفرين بنحو (3) كم؛ بهدف توطين وإسكان المهجرين قسراً من الغوطة والقلمون وحمص.

والمشاريع الاستيطانية ليست بالجديدة على منطقة شمال سوريا، فقد قام بها النظام السوري سابقاً، كالمستوطنات التي أقيمت بظل ودعم ورعاية النظام في القرى الكردية بمحافظة الحسكة

⁸ يعود تاريخ بناء المعبد إلى الحقبة الحثية، أي عام 1200 ق.م، وبني على الطراز الهيلاني (نمط بناء هوري – ميتاني) الذي انتشر في سوريا ما بين عامي 700-1200 ق.م أي قبل الفترة الآرامية.

⁹ يعود تاريخ تشييد أقدم نقطة أثرية في الموقع إلى الحقبة الهورية 3500 ق.م. وصنفته منظمة اليونسكو كأحد أهم المعالم الأثرية في سوريا والشرق الأوسط. للموقع تسميات عديدة، وهو يعرف اليوم بنبي هوري، أما الاسم اليوناني للمدينة فهو «سيروس»، كما سميت «أجيابولس» أي مدينة القديسين كوزما وديميانوس وقد بُنيت كنيسة حول قبريهما، وكنيسة سمعان الغيور التي بناها ودفن فيها بعد موته.

تنفيذاً للمشروع التعريبي لـ محمد طلب هلال¹⁰؛ حيث أصدر هذا الضابط دراسة عن محافظة الحسكة ذات الغالبية الكردية من النواحي القومية، الاجتماعية، السياسية، والذي تضمن توصيات خطيرة جداً حول كيفية تذويب الكرد وتهجيرهم، وهذا ما تم بالفعل؛ وما زال الكرد يعانون حتى اليوم من مشروع الحزام العربي الذي أقيم في شمال سوريا.

خاتمة

إن نتائج الدراسة السابقة توضّح بشكل جليّ، إن الدول المقتسمة لكردستان تعرف جيداً أن إفراغ أي شعب من مضمونه الهوياتي يبدأ من ثقافته، لذا كان الاستهداف للثقافة قبل الإنسان، ويمكن أن نضع ما سبق في خانة صراع بين الإحياء والإبادة، فأما أن تثبت وجودك وتحافظ عليه، وأما أن تباد وتنتشت وتنصهر في أمة أخرى كالأمة التركية أو الفارسية أو العربية.

إذن لا يمكن للإنسان أن يعيش بدون ثقافة، هي القاعدة، وكل الشهداء الذين يضحون بأنفسهم، مهمتهم - بالإضافة إلى حماية الأرض - هي حماية حدود هذه الثقافة، وهذه المهمة تقع على عاتق الأفراد والمؤسسات أيضاً، إذن فأنت مسؤول قبل كل شيء عن حماية حدودك الثقافية، لأن وجودك مرتبط بها، ولكي ترتقي أمتك إلى مستوى الأمم المتقدمة.

المراجع

- الثقافة في قاموس المعاني:

<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A/9>

- رستم جودي - كتاب: الإيديولوجيا. دروس في الإيديولوجيا ألقاها الشهيد رستم جودي، الترجمة: أكاديمية عبد الله أوجلان للعلوم الاجتماعية. تاريخ الطبع: 2017.
- مانيفستو الحضارة الديمقراطية: القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية، المجلد الخامس. عبد الله أوجلان.
- الكومون: كتيب صغير يشرح الكومين في المجتمع الديمقراطي.

¹⁰ كان ضابطاً في وزارة الداخلية السورية تخرج برتبة ملازم أول في 1961 في عهد الانفصال ليتقلد المناصب العسكرية والسياسية حيث وصل إلى رتبة عميد متقاعد . ليتبوأ العضوية المؤقتة للقيادة القطرية ، كما شغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزيراً للزراعة في 1970 ثم نائباً لرئيس مجلس الوزراء وزيراً للصناعة عام 1971 كما شغل منصب سفير سورية في بولونيا بين عامي 1972 و1979. مات يوم الأربعاء 9/2/2011 عن عمر ناهز 80 عاماً.

- كتاب: كردستان مستعمرة دولية – اسماعيل بيشكجي.
- نياندرتال:

<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%8A%D8%A7%D9%86%D8%AF%D8%B1%D8%AA%D8%A7%D9%84>

- اللغة الكردية في روج آفا:

<http://tev-dem.com/ar/2018/02/21/%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%BA%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%B1%D9%88%D8%AC-%D8%A2%D9%81%D8%A7%D9%85%D9%86-%D9%85%D8%AF%D8%B1%D8%B3%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D9%85>

- تدمير ضريح الدكتور نوري ديرسمي:

<http://www.adarpress.net/2018/08/25/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D9%8A%D8%B4%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D9%86%D9%87%D8%A8-%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AB-%D8%B9%D9%81/%D8%B1%D9%8A%D9%86-%D9%88>

- المواقع الأثرية:

<http://buyerpress.com/?p=64104>

- القرية الشامية:

<http://www.adarpress.net/2018/11/11/%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D8%B4%D8%B1%D9%88%D8%B9%D9%8C-%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%8A/%D8%B3%D8%AA%D9%87>

- مركز توثيق الانتهاكات في شمال سوريا:

<http://vdc-nsy.com/2018/11/15/%D9%85%D9%86%D8%B5%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%82%D9%88%D9%82%D9%8A%D9%88%D9%86-%D8%AA%D9%88%D8%AB%D9%82-920-%D8%AD%D8%A7%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%86%D8%AA%D9%87%D8%A7%D9%83%D8%A7%D8%AA-%D8%B6%D9%85>